سؤال لبنى

البراء بن محمد

كانت دنيا بلادًا شاسعة يسكنها ثمانون مليون إنسان. وعاصمتها عامرة أكبر مدنها وأكثرها سكانًا، ففيها ربع أهل البلاد. وكانت وزارة الإحصاء أجل ما فيها من المباني. فمنها تخرج إحصاءات الدولة، وفيها يُستشرف مستقبل البلاد والعباد، وإليها تعود خطط التنمية والإعمار.

وسنام هذه الوزارة العظيمة قسم دراسات المستقبل، وناظره ورئيسه هو مخلوف. وأي الرجال مخلوف!

رجل من دنيا انتصف عمره بين الثلاثين والأربعين. تزوج حديثًا وهو راغب عن إنجاب الأطفال. وله فلسفة في ذم الاستكثار من الأبناء، ومدح من يقطع سبيلهم إلى الحياة. فهو فيلسوف العزل عند من عاشره طويلًا. وهو الناظر في أسئلة التنمية ومستشرف المستقبل عند العامة.

على أن أسئلة التنمية كلها وإن تعاظمت خطرًا تتصاغر دون سؤال واحد أشغل كل من يعرف مخلوفًا عن قرب. أنى لفيلسوف العزل أن يعمل في تنمية التكاثر؟

وليس ببعيد أن ينشغل الناس بذلك. فقد انقضى شباب مخلوف وهو يكثر جدال أهله ومعارفه في جدوى الإنجاب، ويحضهم على تركه، ويذمهم إذا انقادوا إليه.

ومهما يكن من أمر، فقد أتم مخلوف اليوم عامه الأول في وزارة الإحصاء. ولمّا يزحزحه عمله الدؤوب فيها عن آرائه الراسخة. وغاية عمله في مستقبل البلاد أن انطفأت حماسته لبث مذهبه وفكرته في الناس.

نظر مخلوف إلى الساعة فوجدها تشير إلى الثالثة عصرًا، فكان له أن يؤوب إلى منزله، ويستكمل عمله في الغد.

تفكر مخلوف في زيارة ابن عمه مسعود ذلك المساء عسى أن يطوي بها سنينًا من انقطاع الرحم. وأما اختياره مسعودًا فلأنه لم يجافِه ويقاطعه كما صنع مع سائر إخوته وأبناء عمومته. فمسعود حليم واسع الصدر نقي السريرة. وهو لخصاله الحميدة هذه مرجع تحتكم الأسرة إليه عند الخصام والخلاف.

قال مخلوف مهمهمًا: "كفى وظيفتي أنها ربما وصلتني بأهلي وأسرتي بعد انقطاعي عنهم أعوامًا كثيرة".

سكت قليلًا بعدها، وتصور أن رزقه في غير هذه الوظيفة. فاعتراه ذعرٌ شديد قطعه بشكر الله تعالى على نعمته. إذ كان ما يناله من أموال هذه الوظيفة منها أعظم من أي وظيفة أخرى في حياته.

ولم يطل صمته فقال: "وليتها لم تعارض مذهبي في الإنجاب. إذن لكنت أفرح الناس بها".

طالما راودته تلك الخاطرة العجيبة. وما أعجب أن يجري الرزق العظيم على من يستثقله ويود لو لم يأخذه. وقد تردد مخلوف مرارًا في الاستقالة من هذه الوظيفة لولا أن محاسنها تطغى على هذه السيئة التي نغصت باله وفكره بين حين وآخر.

وصل مخلوف إلى بيته، فاستقبلته زوجه رجاء وأعدت له شيئًا يسيرًا، ثم ارتمى في سريره ساعة أو ساعتين قبل أن ينطلق إلى ابن عمه مسعود. إذ كان العرف يوجب عليه أن يزور مسعودًا في بيته. فهو أسن منه، وهو حقيق باعتذاره وطلب الصفح منه. على أن مخلوف أقل الناس اهتمامًا بالعرف والعادات.

وكان من أعراف الناس حينئذٍ أن يحسن الزائر إلى مضيفه بهدية فاخرة، وكانت هدية مسعود باذخة كريمة تليق به وبأخلاقه الجميلة. فقد انتخب له مخلوف من العود والبخور والعطور ما عساه أن يطيب به خاطره، ويفتح له قلبه، ويقربه عنده.

انطلق مخلوف وأشواقه تعجل به إلى اللقيا، ومخاوفه تكاد تؤخره عنه. إذ خشي صدود مسعود وقد فعل بإخوته ووالديه ما فعل.

ثم التقاه فاحتضنه وكاد يبكي لفرط تأثره، وندامته من جفوة السنين. وكانت بشاشة مسعود وسروره بابن عمه تطفئ حرارة اعتذاره وأسفه عمّا بدر منه.

فرح مسعود بالهدية فرحًا شديدًا، وبالغ في شكر مخلوف وأكرمه بهدية أخرى تماثل هديته. ثم سأله عن وظيفته في الوزارة، وأصغى إليه ولم يقاطعه. فاسترسل مخلوف في حديثه، وكان يتوخى ذكر التعارض بين وظيفته وعقيدته. ففهم مسعود ذلك ولم يشأ أن يحرجه بالسؤال.

اطمأن مخلوف إلى مسعود، وأمن توبيخه وعتابه، وأحس أن دنيا وما فيها بمجلس ساعة عند هذا الرجل الكريم. وكاد أن يفضي له بسر مذهبه الذي طواه في نفسه دهورًا. وهو سرٌ غائر في النفس خافٍ عن الناس. لم يطلع مخلوف أحدًا عليه حتى زوجه رجاء.

وقد اتفق أن وافقت رجاء مخلوفًا في الانكفاف عن طلب الذرية. فتزوجها مخلوف لذلك ولخصالٍ أخرى استحسنها فيها. وقد أرجأ زواجه سنينًا مع اقتداره وتمكنه من أسباب الحياة.

ولم ينقضِ عام من الزواج حتى كانت رجاء -كسائر صويحباتها- تحب أن تأتي بطفلٍ تكون له أمًا ووالدة. وكانت تتفكر في فلسفة مخلوف، ولا تجد مع طول التأمل والنظر سببًا معقولًا لإرجاء حصاد الذرية. سيّما والمياه نقية، والأرض خصبة. وما منعَ الحرث إلا إرادة الله تعالى ثم سدود منيعة تحول بين الأرض والغيث.

ثم انتقل مخلوف إلى وزارة الإحصاء، فاشتدت رغبتها في الذرية لطمعها في أن يحوله ماله، وعمله الجديد عن مذهبه الشديد.

أشارت رجاء على زوجها مرارًا بأن يزيل احتباس الماء، وأن يسقي الأرض وينميها، عسى أن يحصدا ما تقر به الأعين والأنفس. ولم تصارحه بانحرافها عن طريقته خشية إغضابه. فما وجدت منه إلا الإباء والصدود. وما كان مخلوف ليجادلها أو يناقشها لظنه أنها ما زالت ثابتة على مذهبه ما تحولت عنه قط.

والحق أن مخلوفًا اكتفى في مجادلتها بكلمتين اثنتين: ربقة التكليف، وعالم الكون والفساد. وهي إشارات تعيها رجاء جيدًا.

فربقة التكليف إشارة إلى أن إنجاب الأطفال ينقلهم من راحتهم لما كانوا عدمًا إلى تكاليف الحياة والوجود. فهي ضيافة في قيود وسجن. وأما عالم الكون والفساد، فالدنيا -في نظر مخلوف- فاسدة مفسِدة، ومجيء الإنسان إليها لا يزيدها إلا فسادًا وخرابًا. ثم هو لا يهنأ

فيها بعيش، ولا تطيب له حياة. فإذا مات -وهو ميتٌ لا محالة- صار إلى أهوال القيامة والحساب. وكان مخلوف ينقطع عند ذكر القيامة وأهوالها، وتعتريه رعشة شديدة، فيستغفر الله ويصمت برهة ثم يقول: "والعدم أهون من ذلك كله".

ومع أنس مخلوف بمجالسة مسعود، فقد تردد ثم أحجم عن إفشاء سره إليه. حتى أتت لبنى ابنة مسعود وهي ذات سبع سنين. وأقبلت إليه تضحك وتستبشر -كأبيها- بقدومه. ثم وقفت أمامه بابتسامتها الساحرة، وملامحها التي أذكرته جدتها أي خالته زوج عمه. احتضنها حينئذٍ وقبلها قبلة حنان وتلطف، وسألها برقة بالغة: من أنا يا ابنتي؟

قالت: أنت عمي. العم مخلوف!

فابتسم حتى بدت نواجذه، فأفسدت لبنى ابتسامته بقولها: ولكنك لا تحب الأطفال!

فصعق مخلوف من قولها، ولم يحر جوابًا. وهاب والدها من أن يسألها عن علة ذلك. وعلا مسعود وجوم مريب أزال ابتسامته الدافئة.

ودهمت قلب مخلوف أسئلة عسيرة: من ذا الذي كذب على هذه الوردة الجميلة فأخبرها بأنني عدو الأطفال؟ وما ذنب الأطفال؟ ألم يأتِ بهم الكبار المفرطون؟ وهل كنت أكره الأطفال حقًا؟ ولو كنت أكرههم حقًا، فلمَ واجهتني بهذه القسوة وقد تلطفت في مخاطبتها

وناديتها بابنتي؟ ألم تعلم أنني نسيت كلمة البنوة ومشتقاتها لطول العهد؟ أكانت تعلم وزن هذه الكلمة عندي؟

تسمّر قليلًا في مكانه، فسأل مسعود ابنته عن أحوال دراستها ليصرفها عن إحراج عمها. فأجابته ببرائتها المعهودة، واستفاضت في حديثٍ ماتعٍ عن المدرسة وصديقاتها ومعلماتها. حتى إذا سكنت نفس مخلوف، أصغى لها سمعًا، وأخفى ارتباكًا بدا عليه. وكان مسعود يدافع فرحة خفية باهتزاز مخلوف، وتأثره لكلمات ابنته التي أحرجته من حيث لم تشعر.

قال مخلوف وقد قطع حديث لبنى: أتحبين الحياة يا ابنتي؟

فقالت لبنى على الفور: أي والله يا عمي. أحب أن آكل الحلوى وألعب كثيرًا كصاحباتي.

اعتدل مسعود حينئذٍ وظن أن مخلوفًا سيورد عليها أسئلته المحيرة، ويصف لها سوء الحياة، وفساد الدنيا، وتفريط الآباء والأمهات. ولولا أن غلبه الحلم، لما تمالك نفسه. فأخذ يصغي إليهما لئلا يحرج ضيفه مخلوفًا، ولا يزجر ابنته لبنى.

قال مخلوف: هل جئتِ إلى الدنيا وأنت تحبينها؟

تمعر وجه مسعود وكاد أن يصرخ بمخلوف، وأحكم قبضته غيظًا وقهرًا.

ضحكت لبنى فوالدها يغالب الغضب. وعمها لحقه حرج شديد. وكانت لبنى أذكى من أن يخفاها حرج عمها مخلوف، وأطيب من أن تحرجها فلسفته الغريبة.

قالت لبنى: ومن يهمه ذاك يا عمي؟

قال مخلوف: إنسانٌ ألقي فيها.

فقالت لبنى بفصاحة أدهشت الجميع: أولو أحب أن يلقى؟

أسقط في يدي مخلوف، وفغر فاه مشدوهًا، وحار في جوابها. فزجرها أبوها بلطف وأخذ بيديها، وأبعدها عن المجلس. ولم تفارق الدهشة عدو الإنجاب فيلسوف العزل، وارتسمت في وجهه حيرة لا تخطئها العين.

عاد مسعود مبتسمًا مترنمًا بقول القائل:

"وفي قبض كف الطفل عند وِلاده *** دليلٌ على الحرص المركب في الحي"

فانقدحت في نفس مخلوف عبارة أعجمية قرأها في غابر الأزمان. فوعاها وسبر أغوارها، وسبرت أغواره، وأثرت فيه تأثيرًا عظيمًا.

“Dans l'attachement d'un homme à sa vie, il y a quelque chose de plus fort que toutes les misères du monde”

وقال مخلوف "أولو أحب أن يلقى؟" مرارًا حتى سمعه مسعود، فابتسم ولم يعقب بشيء.

لم يطل بمخلوف مقام حتى قفز من مكانه ليقبل رأس مسعود ويقول: أعتذر منك يا أبا لبنى. واعلم أنني أحبك في الله! ثم خرج من عنده مسرعًا وهو يردد عبارتها وكأنه وجد كنزًا خفيًا بعد عمر طويل.

وعاد إلى رجاء ليشهد معها جواب لبنى "أولو أحب أن يلقى؟".

تمت القصة.

albara1500@hotmail.com

عشية الأحد

1444/2/8هـ

2022/9/4م